الفصل الثامن

البرنسان فى المعرض – والعودة الى الوطن

مسكن للبرنسين . زيارتى لوزارة الخارجية . قدوم البرنسين فى السفارة التركية . سؤال ولى العهد من الطلبة المصريين . على مائدة رئيس الجمهورية . زيارة البرنسين للمعرض رسميا . طلب نياشين خديوية . مصنع الزجاج الفنى . مشاهدة أول سيارة . مأدبة وزير الخارجية . طلب خروج ولى العهد بالقبعة فى لوج رئيس الجمهورية بالاوبرا . توزيع النياشين المصرية والفرنسية . الاستعداد للعودة الى الوطن . سفر البرنسين الى فينا . سفرى الى الاسكندرية . المثول لدى الخديو . المغنية ليلى فى القاهرة .

مسكن للبرنسين — وفى الثامن من فبراير سنة ١٨٨٩ وصلنى خطاب من تونينو باشا تشريفاتى أول الحضرة الخديوية يكلفنى فيه ، بناء على الامر العالى ، بالبحث عن مسكن لائق للبرنسين مده وجودهما فى باريس لزيارة المعرض ، وأن يكون موقعه فى الشانزليزيه .

وبعد مشاهدة جملة مساكن فخمة بعثت بنتيجة بحثى مفصلا ، فورد لى منه فى ١٥ مارس بأنه عرض على سمو الخديو ما أرسلته اليه بخصوص المساكن وهو يبلغنى شكر سموه على ما بذلته من العناية بهذا الصدد ، ويخبرنى فى نفس الوقت بأنه لا ضرورة للبحث بعد ذلك لأنه تقرر أن يزور البرنسان المعرض بصفة رسمية ، وستخصص لهما الحكومة الفرنسية منزلا يليق بمقامهما

ولما دعت الحكومة الفرنسية رؤساء الدول لزيارة المعرض كان بين المدعوين سمو الخديو توفيق باشا ولكنه اعتذر عن الحضور بنفسه وانتدب لتمثيله نجليه

وفى ١٢ يوليه حضر الى باريس تونينو باشا واحمد بك زكى بالاجازة ، فكتبت لجريدة الفيجارو نبذة عنهما ، ولقيت بعد ذلك أحدمحرريها فأبلغنى أن الجريدة ترحب بنشر كل مايتعلق بمصر وتشكرنى على ما أرسله لها فى هذا الشأن

زيارتى لوزير الخارجية . وحدث فى ذلك الحين حادث غريب ؛ ذلك أن وزارة الخارجية الفرنسية أرسلت فى يوم ١٦ يوليه رسالة إلى ابراهيم بك ذى الفقار باسم (ناظر خارجية مصر) وفيها أن وزير الخارجية الفرنسية سيقابلنا يوم الخميس فى الساعة العاشرة صباحا ، وكنا قد طلبنا مقابلة الوزير لرجائه فى تعيين مسيو جرى ليكون بمعية البرنسين أثناء زيارتهما للمعرض رسمياً . وكنا قد وقعنا على هذا الطلب أنا بصفتى من موظفى المعية وابراهيم بك بصفته نجل ناظر خارجية مصر . فاستاء ابراهيم بك لهذا الخطأ فى العنوان وخشى سوء العاقبة فطمأنته من هذه الناحية بأن الخطأ لابد أن يكون مصدره سكرتير الوزير

ولكن شد ما كانت دهشتى حينما ذهبنا فى الميعاد المحدد فوجدنا أن الوزير نفسه يعتقد أن ابراهيم بك هو ناظر خارجية مصر ، فصححنا هذا الخطأ . ولما قابلناه فاتحنا بقوله : « أنا شاكر لزيارتكما فهل من حاجة لأقضيها لكما ؟ » فذكرته أولا بأننا تعرفنا به بواسطة المسيو جرى وأننا تقابلنا معه مرتين بعد ذلك ، وان سبب هذه الزيارة هو أننا نرجو انتداب صديقنا مسيو جرى لمرافقة البرنسين عند حضورهما . فقال انه سيبذل جهده لاجابة هذا الطلب .

وفى ٣٠ أغسطس سافرنا إلى مرسيليا لانتظار البرنسين ، وهنالك قابلت بشارة بك تقلا صاحب جريدة الاهرام ، ثم الدكتور عيسى باشا حمدى ، وقد ذهبت معه إلى إدارة الضبط للتحري عن ميعاد حضور الباخرة التى تقل البرنسين ، فلم نجد الضابط المختص وأجابنا سكرتيره أن وزير الخارجية كلفه إرسال برقية حين تشريفهما

قدوم البرنسين . ثم وصل البرنسان فى يوم أول سبتمبر وكنا فى انتظارهما بالميناء ، وقد أعددنا عربتين لركوبهما مع المعية . ولما جاء الخبر بدخول السفينة ركبنا الزورق الذى أعد لها ومعنا أحد الضباط للترحيب بهما من قبل الحكومة الفرنسية ، وذهبنا لمقابلتهما وكان معهما عبد الرحمن باشا رشدى رئيس تشريفات الخديو وعلى جمال باشا المربى (لالا) وحمدى بك ياور الخديو ومحمود بك شكرى كاتب ثانى قلم تركى المعية ويوسف بك ضيا معاون التشريفات ونجيب افندى معلم تركى الأنجال .

ولما ذهبنا إلى الفندق لم يسمحا لى بالانصراف بل حتما على البقاء معهما . ثم سافرنا إلى باريس فوصلناها فى صباح اليوم التالى ، وكان فى المحطة لاستقبالهما مندوب عن رئيس الجمهورية وآخر عن ناظر الحربية ، مهمته أن يرافق سموهما مدة إقامتهما ، وكذلك المسيو تمرمان المدير الفرنسى للسكك الحديدية المصرية سابقاً والكونت ديللا صالا باشا واحمد بك زكى التشريفاتى وكثير من الطلبة المصريين فى فرنسا وميثاق افندى مستشار السفارة العثمانية بالنيابة عن السفير العثمانى

وبعد الاستقبال الرسمى ذهبنا إلى السراى المعدة لاقامة البرنسين فى شارع كوپرنيك وهى السراى التى نزل بها من قبل شاه العجم ثم أمراء تونس ، وهى بناء فخم مؤثث على الطراز الشرقى . وفى مساء اليوم التالى لوصولنا حضر البرنسان الى غرفتى بالسراى ، وكان سمو الخديو قد انتدبنى للعمل بصفة سكرتير مع الحاشية مدة الزيارة ، وأمضيا السهرة عندى .

فى السفارة التركية . وذهب البرنسان وحاشيتهما إلى السفارة التركية لزيارة أسعد باشا فرد لهما الزيارة على الأثر ، ثم ركبا عصراً للرياضة فى غابة بولونى

سؤال ولى العهد عن الطلبة . وجاء رئيس البعثة مسيو موجيل بك ومعظم الطلبة المصريين لمقابلة سموهما وتحيتهما . واهتم ولى العهد بالسؤال عن أحوال الطلبة ودراستهم بالتفصيل من رئيس البعثة وغيره . وعلمت أن مسيو موجيل ذكر لسموه عن نجلى ثابت باشا حقائق غير مرضية . فلما سألنى سموه عن ذلك أخبرته بما حدث من أمر المبارزة التى سبق ذكرها

وبعد حين جاء نجلا ثابت باشا إلى السراى ، وبدلا من أن يطلبا المقابلة توآ زارا جمال باشا واعتذرا له عن المثول بين يدى البرنسين نظراً لأنهما لا يلبسان الطربوش ، فاستاء البرنس عباس لما علم بذلك وأمر بعدم قبولهما اذا حضرا مرة أخرى . فظنا أننى وشيت بهما وأرسلا لوالدهما يخبرانه بذلك وعزز أقوالهما جمال باشا نظراً لما حدث بينى وبين عزيز من المشادة يوم طلب المبارزة مع احمد ذى الفقار .

على مائدة رئيس الجمهورية . وفى الثالث من سبتمبر دعى البرنسان وعبد الرحمن رشدى باشا وعلى جمال باشا وعيسى باشا حمدى لتناول طعام الغداء على مائدة رئيس الجمهورية فى فونتين بلو ونشرت الصحف الفرنسية أنباء هذه المأدبة ، وقد رحب بهما الرئيس أحسن ترحيب وعند انصرافهما شكراه

زيارة البرنسين المعرض رسميا . وفى اليوم التالى ركبنا العربات بمعية سموهما لزيارة المعرض رسمياً (١) وكان هناك فى انتظارهما رئيس النظار وناظر الخارجية وقنصل جنرال فرنسا فى مصر وناظر المعرض والبارون دى لور مندوب مصر فى المعرض المصرى والكونت دو رمسون رئيس التشريفات وخورشيد بك مندوب السفارة العثمانية . فزرنا (الحارة المصرية) ووقفنا أمام محل تجارة الروائح العطرية الشرقية لصاحبه السيد مصطفى الديب الماوردى، فسر البرنسان بما عرض فى هذا القسم وهنآ البارون دى لور على حسن تنسيقه له ، ثم طفنا بعض أقسام المعرض ومنها القسم الخاص بعرض الجواهر ، وقد شاهدنا فيه من أثمن وأكبر أحجار الماس وغيرها مما دهشنا لرؤيتها . ثم معرض قسم المطافىء وفيه مناورة إطفاء حريق ثم انصرفنا . وقد شكر البرنسان الذين صحبوهما فى هذه الزيارة . وبعد الظهر زارا معرض الخيول .

برج إيفل . وفى اليوم الخامس من سبتمبر ذهب البرنسان مع الحاشية، وكنت معهم، لصعود برج إيفل فقوبلا بصفة رسمية ، ثم صعدنا إلى البرج ، وهو بناء عجيب شاهق يتألف من طبقات ثلاث يرتفع أولاها عن الأرض ٥٧ متراً والثانية ١١٥ متراً والثالثة ٢٧٦ متراً . وعادة لا يتسنى لطالب الصعود بالمصعد ذلك إلا اذا جاءه دوره حسب الترتيب المقرر الا فى الزيارات الرسمية

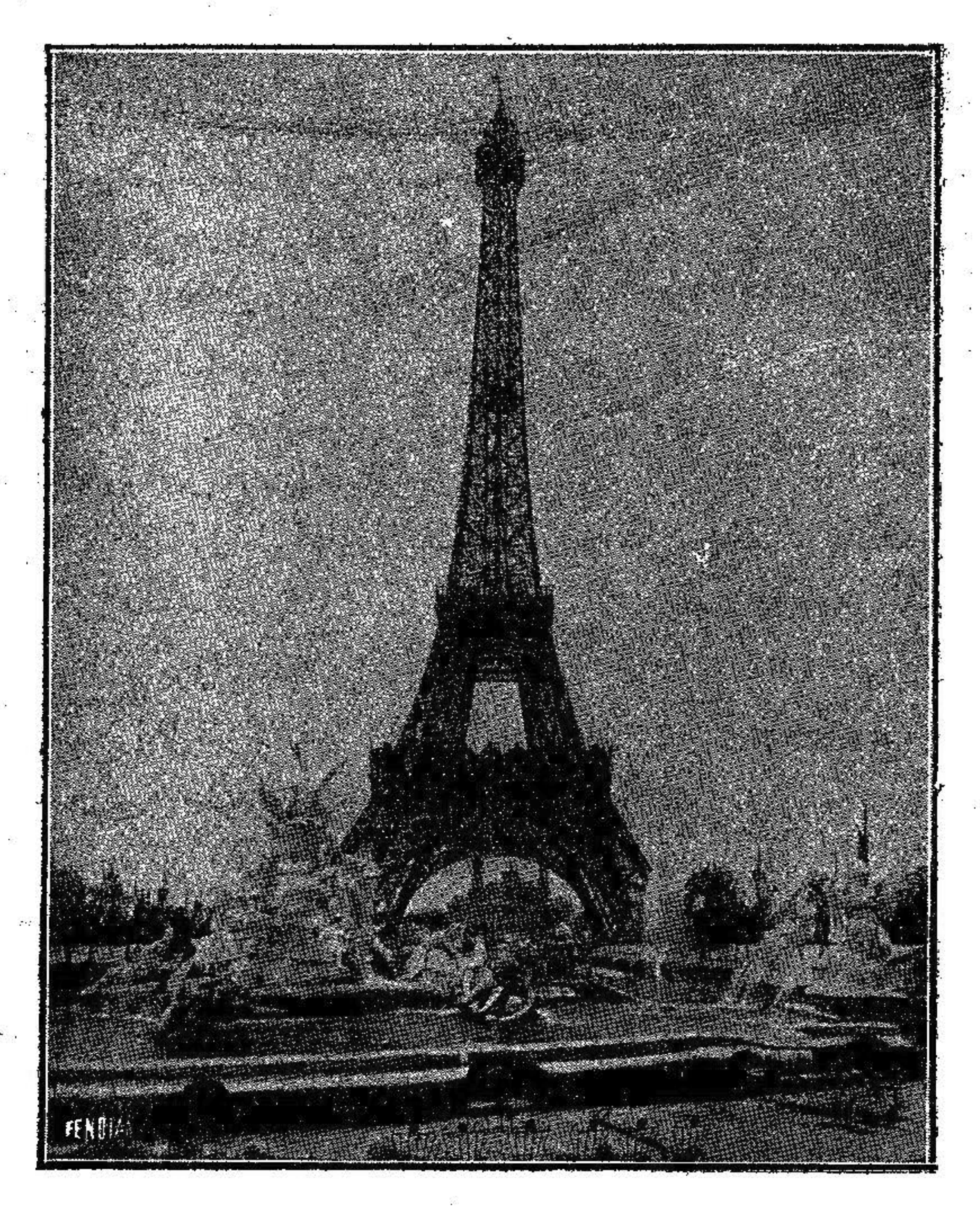
وقد رأينا من الطبقة الاولى مدينة باريس بأسرها بقبابها وأبراجها ، وكان المنظر فيها رائعاً ، وبهذه الطبقة أربعة مطاعم يسع الواحد منها نحو خمسمائة شخص ، وفى الطبقة الثانية توجد مطبعة الفيجارو .

ولما صعدنا إلى الطبقة الثالثة شاهدنا باريس كأنها على خريطة وما فيها بحجم صغير جداً ، وقد أحسسنا باهتزاز هذا البرج عند وجودنا فى هذه الطبقة . وليس لأحد من الزائرين أن يتعداها إلى مافوقها ، غير أنه تصرح بصفة استثنائية إلى البرنس عباس بالصعود إلى القمة

وفى القمة فنار قوته ثلاثة آلاف امبير ، وبه ٤٨ مصباحاً ، والفنار نفسه ثابت لا يتحرك ، ولكن الصفائح الزجاجية التى أمام قاذفات الضوء هى المتحركة تدار بواسطة آلة ساعة ، وقد لونت بألوان العلم الفرنسى الثلاثة ، وهى الأحمر والأبيض والأزرق

---

(١) يجد القارىء فى الفصل السابق وصفاً وافياً للمعرض ومحتوياته .



برج ايفل ومعرض سنة ١٨٨٩

ويبلغ ارتفاع البرج حتى القمة ثلثمائة متر .

طلب نياشين خديوية . وكان المسيو شارل دولسبس قد سألنى عما اذا كان البرنس عباس يحمل معه نياشين مصرية للانعام بها على مستحقيها فأجبته بالنفى . فقال لى : كان من المناسب أن ينعم الخديو ببعض النياشين عند انتهاء الزيارة . فلما أخبرت عبد الرحمن رشدى باشا بهذا الحديث بعث برقية لسمو الخديو بهذا المعنى فاستحسن سموه الفكرة وتفضل بارسال سبعة عشر نيشاناً وزعت على من دلنا عليهم شارل دو لسبس .

مصنع الزجاج الفنى . وكتبت إلىّ مدام امبرتون تطلب أن أرجو سمو البرنسين فى زيارة محل زوجها بالمعرض ، وهو مصنع لعمل الزجاج الفنى ومنه المستعمل فى مصابيح المساجد ، حتى ينال شهرة بهذه الزيارة فقبل سموهما رجائى وزارا المحل

وفى هذا الخطاب تخبرنى أنها سبق أن تعرفت بحمدى بك الياور الموجود بمعية البرنسين ورغبت فى مقابلته ، فأطلعته على ذلك فلبى دعوتها ثم عاد من لدنها مسروراً .

مشاهدة أول سيارة . ثم وردت لى برقية من محمد بك زكى يقول فيها : « ان سمو الخديو يأمر أن أذهب لمعاينة العربة البخارية (السيارة) لمعرفة ما إذا كانت توافق سموه ويمكن أن تسير على الرمال فى حلوان » وكنت قد أرسلت عنها نشرة لعرضها على سمو الخديو .

وكانت هذه أول سيارة (اتومبيل) اخترعت وعرضت فى المعرض، فذهبت لمعاينتها مع صاحبى السمو عباس ومحمد على ، وكان شكلها عجيباً فان المدخنة كانت فى الخلف وهى تدار بالبخار والعجلات عريضة من غير كاوتشوك . فركبناها من المعرض إلى سراى كوبرنيك وكانت فى سيرها بطيئة وخصوصاً عند وصولنا إلى الشارع الذى تقع فيه السراى لارتفاع الطريق . وكانت المدخنة تقذف علينا الدخان . وبعد معاينتها كتبت إلى محمد زكى بك بما شاهدته

مأدبة وزير الخارجية . وفى ٩ سبتمبر دعى البرنسان ومعهما عبدالرحمن رشدى باشا وعلى باشا جمال لتناول طعام العشاء على مائدة وزير الخارجية ، وكان من المدعويين أسعد باشا ورئيس الوزراء ووزيرا الداخلية والبحرية وكثير ممن لهم علاقة بمصر أمثال دوبلنيير وشارل دولسبس .

وبهذه المناسبة ألقى وزير الخارجية الفرنسية هذه الكلمة :—

« أشرب نخب الخديو توفيق ونخب ابنه البرنس عباس باسم كل المجتمعين الذين يحبون مصر حباً خالصاً . وأشرب نخب مصر ، هذه الأرض الكريمة التى يحكمها والدكم العظيم نيابة عن السلطان ويسير بها إلى السعادة والرفاهية

وانك يامولاى ستسير على هذه الخطة الطيبة التى سار عليها والدك وستجد دائماً كل معونة من فرنسا التى ترتبط بمصر ارتباطاً وثيقاً لاانفصام له لما بينهما من المصالح المشتركة والعلائق الودية منذ الأحقاب » .

فشكره البرنس عباس على هذه الكلمة الطيبة .

طلب خروج ولى العهد بالقبة . وفى يوم ١١ منه أراد البرنس عباس أن يخرج بالقبعة فلم يرض جمال باشا وأرسل إلى الخديو يستشيره فورد الرد تلغرافياً فى اليوم التالى بامكان خروج الأمير بها ولكن مع عبدالرحمن رشدى باشا ولذا غضب جمال باشا

فى لوج رئيس الجمهورية بالاوبرا . وفى الثانى عشر دعينا جميعاً إلى الاوبرا فى لوج رئيس الجمهورية وجاء لزيارة سموهما فيه المسيو تيرار والكونت دورمسون رئيس التشريفات وبعض موظفى وزارة الخارجية

توزيع النياشين المصرية والفرنسية . وقبل مغادرة سموهما لفرنسا وزعا النياشين المصرية على سبعة عشر من الكبراء وأهدت الحكومة الفرنسية نيشان اللجيون دونير من الدرجة الثانية للبرنس عباس ومن الثالثة لعبد الرحمن رشدى باشا ومن الرابعة للبرنس محمد على ومن الخامسة لكل من على باشا والدكتور عيسى باشا وحمدى بك

الاستعداد للعودة . كان آخر أيام إقامتى فى باريس مرافقة البرنسين فى زيارتهما الرسمية للمعرض ، ومرافقتهما إلى فينا ثم العودة إلى مصر . وانتهت زيارة المعرض كما قدمت فى الثالث عشر من سبتمبر . فأمضيت اليوم التالى فى شراء بعض الهدايا والثياب الجديدة التى رأيت حملها معى ثم رتبتها فى صندوق خاص ، وقصدت محل كوك وطلبت اليه أن يرسل مندوباً لتسليم أثاث البرنسين والحاشية وتصدير بعضه إلى فينا وباقيه إلى مصر وفيها أثاثى ، وإصدار تذاكر السفر اللازمة .

ثم رتبت مااشتريته من الهدايا والثياب الجديدة وغيرها فى صندوق خاص(١)

سفر البرنسين الى فينا — وفى يوم ١٥ سبتمبر غادر البرنسان فرنسا إلى فينا فاستقلا القطار السريع من محطة الشرق واجتمع لوداعهما بالمحطة كثير من الفرنسيين والمصريين ، ولاحظت أنهما صافحا جميع المودعين ما عدا نجلى ثابت باشا وكنت

---

(١) وقد ضاع هذا الصندوق الثمين قبل إرساله ولم نعثر على أثره رغم كثرة البحث

بمعيتهما وكذا عبد الرحمن رشدى باشا ونجيب افندى معلم التركية . أما بقية أعضاء الحاشية فقد سافروا إلى مصر عن طريق مرسيليا

ووصلنا فى اليوم التالى إلى فينا ثم ذهبنا تواً إلى فندق المتروبول . وبعد يوم من وصولنا زرنا مدير مدرسة «الترزيانوم» وتحادثنا معه بشأن دراسة البرنسين .

وكانت المدرسة قد خصصت للبرنس عباس غرفة خاصة مربعة بها سرير من الحديد ومشجب ودولاب للملابس وأدوات الشاى ، ومنضدة من خشب الجوز وضعت عليها أدوات القهوة ، ومكتب وضعت عليه قواميس وكتب عربية وفرنسية والمانية ، وكان البرنس يأخذ دروسا خصوصية ولا يختلط بباقى التلاميذ

أما البرنس محمد على فقد ضم إلى بقية التلاميذ يعامل مثلهم ويدرس كدراستهم وقد قال لى ناظر المدرسة أنه أذكى من زملائه النمسويين

سفرى الى الاسكندرية . وفى يوم ٢٧ سبتمبر سافرت من فينا إلى فينسيا بصحبة عبد الرحمن رشدى باشا ثم ركبنا البحر إلى مصر ، ومررنا بالطريق بثغر برنديزى . وقد آنست فى هذه السفرة بصحبة رشدى باشا إذ رأيته رجلا جم المعارف واسع الاطلاع . وكذا التقينا على الباخرة بزميل آخر هو عزيز بك كحيل مستشار محكمة الاستئناف المختلطة .

وفى صباح اليوم الثالث من اكتوبر وصلنا إلى ثغر الاسكندرية وكان فى استقبالنا محمد بك زكى وأفراد عائلتى وغيرهم فركبنا عربة من عربات السراى وذهبنا إلى رأس التين وهناك سلمت على اخوانى وشكرت رئيسى دومرتينو باشا على حسن صنيعه معى ومساعدته لى فى البقاء بفرنسا حتى إتمام دراستى . ولم أستطع الحظوة بمقابلة سمو الخديو نظراً لانعقاد مجلس النظار برياسته

المثول لدى الخديو . ولما عدت إلى السراى عصراً أخبرت أن الجناب العالى تفضل بالسؤال عنى وطلبنى للمثول بين يديه فمثلت ، ثم سألنى عن الأميرين فطمأنته على صحتهما، وسألنى عن المعرض فقدمت له بعض لوحات أخذتها عن مناظره فسر بها

المغنية ليلى . وقبل سفرى إلى القاهرة دعيت إلى حفلة ختان نجلى حسين بك رمزى الياور ؛ وهما اسماعيل وحسين شيرين . وكانت حفلة غنائية ، غنت فيها المطربة

الجميلة ليلى وهى أشهر المطربات ، فأعجبت جداً بغنائها وسررت ، وكنت أعتقد أنى بعد تذوقى للموسيقى الغربية لا أستطيع أن أتذوق الموسيقى الشرقية وغناءها مرة أخرى . غير أن الحنين القديم عاد إلى نفسى عند سماعها

فى القاهرة . وفى صباح اليوم الرابع من اكتوبر ركبت وأخى محمد توفيق القطار للقاهرة . وكان فى انتظارنا بالمحطة سعيد بك ذوالفقار والسيد توفيق البكرى وطائفة من الآل والاصدقاء . فركبت مع السيد توفيق وتبعنا الباقون فى العربات

ولما وصلت إلى منزلنا نحر عجل للصدقة ، وصدحت الموسيقى بالسلام . فلم ترق لى هذه الضجة . وبعد انصراف الموسيقى بدأ القراء بتلاوة القرآن ، واستمر وفود الاصدقاء للتسليم على حتى منتصف الليل

وقد قضيت يوم ٥ اكتوبر بالقاهرة متجولا لزيارة بعض أفراد عائلتى والأصدقاء رداً لزياراتهم فلم ترقنى العاصمة ولا الاسكندرية بل بدتا فى نظرى كأنهما مجموعتان من الخرائب أعدتا دليلا على تأخر الحضارة فى الشرق . ولكن رغم ذلك فلا أنكر أن بهما منازل شاهقة . ومع كل فالبون شاسع والفرق بعيد بين الشرق والغرب فى العناية بالبناء وتشييد القصور

وفى يوم ٦ اكتوبر رجعت إلى الاسكندرية